البيرق

الخميس ١٠ حزيران ١٩٤٨

ميشال شيحا ينبّه الحكّام للأخطار ويدعوهم الى الإصلاح قبل فوات الأوان والى المحافظة على القانون ونبذ المحسوبية والنفعية.

قد يجوز الإختلاف حول مواقف الأستاذ ميشال شيحا المتتابعة، وحول بعض أرائه، سابقاً ولاحقاً ، في الشؤون المحلية وفي الحالات العالمية. ولكن مما لا شك فيه أن الرجل يتمتع بشخصية قوية، وإنه، عندما يضع مواهبه (منطقه، سلامة تفكيره، ذكاؤه، قدرته على الإقناع ، صوفيته رغم مادية وضعيته) في خدمة قضية خير ما، وبتجرد من بقايا حزبية أثرت – ولا تزال تؤثر أحياناً – في مجرى عقليته، فإنه ينتج أموراً كبيرة ليس في استطاعة أي كان أن ينتجها.

وعندما اجتمعنا، نحن رجال الفكر والأدب والفن والصحافة، إلى جانب أركان السلك السياسي الأجنبي في لبنان، يتقدمنا معالي وزير الخارجية، الأستاذ حميد فرنجيه، ذلك الشاب الذي يقدر القيم حق قدرها، نستمع مساء الاثنين الفائت، الى الأستاذ ميشال شيحا، يتحدث عن "قيم" لبنان، مختتماً بذلك سلسلة "تعمير البيت اللبناني"، وبالتالي محاضرات "الندوة اللبنانية" كلها لهذا الموسم، كان معظمنا يخالجه هذا الشعور. فبعضنا أتى ليسمع المحاضر مؤمناً، وبعضنا بعامل الفضول، وبعضنا للانتقاد، ولكننا كلنا جئنا، وهذا المهم، لاننا ندرك أن رأياً يعطيه ميشال شيحا له وزنه، وإن نظرية يبديها تخلق تياراً.

وهذا ما عبّر عنه صديقنا مؤسس الندوة، ميشال أسمر، عندما قال في كلمة تقديم المحاضر الكبير : " لولا الظروف لما وقفت بينكم وبين المحاضر ثانية واحدة ... فإنما أريد أن أعبّر عن سروري بأن يختم سلسلة المحاضرات ميشال شيحا الذي يعمل منذ سنوات في حقل السياسة العملية والنظرية من أجل سعادة " البيت اللبناني" .

ولا أكتم قرائي في " البيرق " أن من حق ميشال اسمر أن يعرب عن سروره ، فمن الندوة بمكان أن نسمع الأستاذ ميشال شيحا، صاحب تلك الزوايا المتواضعة، الواسعة الأفق، في " لوجور" ، يحاضر بإسهاب ليستعرض أمامنا أوجه التعمير الروحية، في ظرف كهذا، وبعدمختلف التطورات التي طرأت على لبنان وعلى العقليات والإتجاهات الفكرية فيه منذ خمس سنوات حتى اليوم.

وقد أحببت، زيادة في الأستقصاء والتجرد، وبالنظر لأهمية الموضوع، أن أستنير وأستعين بأراء فئة مفكرة، نزيهة، من المستمعين الى ميشال شيحا بقلوبهم، والذين وعوا كلامه بعقولهم وقلوبهم، فخرجت بطائفة من التعليقات رأيت لزاماً علي أن اثبتها كلها، مع ما فيها أحيانا من تلميحات قد تبدو لقراء " البيرق " قاسية. فالرجل ممن تجب مناقشته حرفاً بحرف، لأنه يؤثر في حياة لبنان اليومية بكل حرف مما يكتب ويقول !

معظم من حدثتهم قالوا لي بعد المحاضرة :

– إن ما سمعنا يحملنا على أن نغير رأينا في ميشال شيحا !

وقال لنا بعض آخر :

-إن ما سمعناه يعزز رأينا فيه !

ولكن ماذا سمع هؤلاء وأولئك ؟

صرف المحاضر القسم الأول والأكبر من حديثه في تحديد معنى " القيم" على اعتبار أن إظهارها ودرسها معناهما تطبيقها تطبيقاً مفيداً في مختلف البلدان، وبالتالي في لبنان. وقد عالجموضوعه، كما قال لنا ، في الحقل المطلق، معترفاً بأنه يجهل الى أين سيؤدي به ذلك.

ثم قال المحاضر، في تعريفه " القيمة "، إنها قضية نظام وخضوع. وقد يحدث أن تأتي ظروف فتقلب هذه القيم. ومن أجل التقدير والتصنيف ينبغي، لكل أنواع القيم، ولكن بدرجات مختلفة، التعليم، والتربية، والأنظمة والاشكال السيدة للاختيار، لأن الذوق والحكم، مع كونهما غريزيين احيانا ، انما يقومان أيضاعلى عادة وعلى تكوين ، على احساس وعلى منطق.

والشعوب ، كالافراد، بحاجة الى ثقافة لاظهار القيم، ولا بد من مستوى تمدني معين للحكم على صفة المبادىء والعادات والاخلاق وعظمة المؤسسات، على كل ما هو نبيل وجميل. وتاريخ القيم مقتضب بمعنى أن القرن العشرين وحده هو الذي جعل منها نظرية عامة، ومدلول القيمة يسيطر على كل حياتنا. والروحانية العليا تتعلق مباشرة بالقيم . "ولكل شيء قيمة ".

وهنا حمل الاستاذ ميشال شيحا، بإظهار تناقضها مع فكرة الخير، على ملذات هذا العالم والجنات المصطنعة ، من مسكر ورقص ومقامرة وسهر، مستشهداً بأقوال المسيح، وبودلير، وباسكال، وتوسع في أنواع القيم حسب تطبيقها في نواحي الحياة المختلفة : البورصة والسوق، الكلمة والتعبير، الموسيقى ، الرسم ، الرياضيات، الاقتصاد، المنطق، الاجتماع، السياسة، الفلسفة،الروح، الدين ... الى أن نصل الى الفكرة الالهية سيدة الكل مند بداية العالم.

ولكن الأساس، في القيم الأخلاقية والجمالية ، يجب أن تبدأ بالانسان، لأن الانسان هو الأساس. فهو ليس ثروة تقدر، انما معارف، ومواهب، وحكمة، نحاول أن نقيسها.

ولميشال شيحا هنا فكرة أعجب فيها الجميع لأنها تنطبق على الكثيرين من رجال المال والاقتصاد عندنا، قال:

" ... وحالما يخرج المرء من عالم الاقتصاد، الذي يفضله الكثيرون من العميان على كل شيء، يرتفع شيئا فشيئا الى تذوق التحفة المثالية (وقد يبلغ به ذلك حد القرف من الباقي) أي الى تمجيد كلما هو أعلى في داخلنا وخارجنا. وفي عالم القيم هذا، حيث للفكر المقام الأول، والذي يكون النخبة، فالذينحبهونسعى اليه، ليس هذا الشيء المادي (الا الجمال المجسم) بل قوة الخطاب، ودقة الحكم، وعلو النظرة، والصفة الاخلاقية، الجرأة ، والشجاعة، والتجرد واحتقار الموت كزهرة بين الشفاه..."

والعالم، في نظر ميشال شيحا، وهو يحلل القيم بالنسبة لنفسها ولمحيطها، لا يزال بعيداً جداً عن المعرفة،ويباعد بينه وبين نفسه المعرفة (قيمة منطقية اخلاقية) التي دهورتنا الى درك البرابرة. ذلك ان ذوقناقد فسد حيال الحق والجمال والخير... وان تفسير هذه القيم يتبدل ويتغير ويتناقض حسب البلدان. حتى

ان نصف هذه القيم ينهار ! ولكن لا يمكن أن ننكروجود وقيمة القانون الطبيعي الذي يؤنبنا على عمل سيء ، ويوقظ فينا تبكيت الضمير. والانسان يسعى بحرارة وراء الانسان، وراء قيمته هو، عبر الماضي.

وإن مأساة القيم هي، في أيامنا الحاضرة، قد بلغت مرحلتها الحادة، في كل العالم. والمستقبل سيكون في تناسق القيم بين بعضها البعض، في توازن للقيم يضع كل شيء في مقامه.

وبعد أن ينتهي المحاضر من بسط هذه النظريات العامة، ينتقل الى درس القيم في لبنان وما تحب أن تكون. ويبدأ بالقول إن معرفة القيم الاقتصادية عندنا بعيد المدى. وان القيم الوهمية لهذه الفئة تتلقى عقابها هنا.

والقوانين، عندنا، ليست لها، غالب الأحيان، الا قيمة نسبية. وهذا يعود الى فوضى – بمعنى عدم طاعة – ورائية، تتطلب رد فعل لا يمكن أن يتأخر. والأشياء المادية لا يمكن تقديرها بأكثر ضبط مما يفعل اللبناني الذي هو أبعد من أن يدرك أهمية الشيء الكامل والعناية بالتفصيل وبما يجعل للأشياء قيمتها ويعلقنا بها، بعكس ما كان يعمله قديماً الفينيقيون. اما اليوم فكل شيء تقريبي. واننا نهتم كثيراً بالظاهر في كل شيء. في ظاهر خال من الهندسة والعياقة. ثم اننا نرتكب غالباً هذه الخطيئة بحق الفكر والروح، وهيي ان نعتبر الرجل حسب ما يملكه من مال أولا. وللمال أكثر مما يستحق من القيمة هنا، باعتباره في حقل الملكية لا بما يمكن ان يفعل به. إن حول لبنان وفي داخله قوة جاذبية واغراء عظيمة. لقدحان الوقت لنتذكر أنه اذا كانت لكل خيرات هذا العالم قيمة، فليست كلها للبيع. وهذه البلاد طالما عاشت بخطورة. وسيظل كذلك. فهي محاطة بالتجارب والمطامع. وبقدر ما نفضل التسهيلات والراحات التجارية، على الحريات المشروعة الأساسية، نقترب من الهوة، وعلى تجار وباعة بيروت الكبار، وعلى الصناعيين، وعلى الذين يوجدون رفاهية البلد، أن يفكروا بذلك أكثر مما يفعلون. كل شيء حسن عندما نوفق بين مختلف المصالح دونما التضحية بالمصلحة الرئيسية. وحتى نعمر لبنان لليوم وللغد، يلزم التأكيد أن معنوية هذا البلد وقواه العليا لن تهن ابداً. إنها، بصورة حاسمة، قضية تربية وأخلاق. يلزمنا تمتين الشخصية والطباع. يلزمنا مواطنون.

وإن ما يجري الآن في فلسطين يجب أن يكون أمثولة لكل منا . واذا لم ينصرف لبنان الى فبركة مواطنين بالجملة فإن الخطر سيهدده مع طول الزمان. والى جانب أخطار وراثية عديدة، أضيف خطر جوار اسرائيل الرهيب ولبنان سيوطد ما ربحه بتمييز فردي واجمالي للقيم، بعودة الى نظام القيم. يجب أن يشجع أفضل عناصر الدولة. ولا يجب أن نترك لعامل الوقت مهمة توجيه الدولة أخلاقياً وفنياً، ومهمة توجيه الأمة الأخلاقي والإجتماعي . ان توجيهاً كهذا يجب أن يأتي حتما عن سلسلة أعمال ايجابية تقوم بها الحكومة وممثلو الدولة.

واختصر المحاضر كلامه مستعرضاً القيم ودورها في لبنان. من القيم الجمالية، الى القيم الأخلاقية . وتوقف عند هذه الأخيرة، لأنها تمتد من الفلسفة الى السياسة. وقال انه مع امتلاكنا عدداً من القيم العاليةالفردية والاجمالية،توجد ثغرات ، المسؤول عنها في الدرجة الأولى هذا الوقت الذي يقلب كل شيء. ولكن الجنون هو أن نسير مع التيار بدلا من أن نقاومه. فالمحسوبية والامتياز قد توغلا بعيداً. ثم ما النفع من معرفة القانون اذا لم نتعلم المحافظة عليه ؟ حللوا بعناية، في لبنان، كل ما يثير الانتقاد واللوم ، تجدوا عامة أنه إهانة القانون. وحوادث خرق القانون المتكررة، التي لا يعاقب أصحابها عليها، تقضي على الأنظمة والقوانين. أو عندما يساء تطبيق القانون فإن ذلك يخلق اوتوماتيكياً الاحتكار والمحسوبية لفائدة من لا يحفلون بالقانون.

إنها قضية خطيرة يجب أن يحاسب كل مواطن حيالها نفسه ليرى أخطاءه، وفي الطليعة الشارع... إن روح التسامح هي التي بنت لبنان منذ البداية والتي توطد لبنان اليوم. إنها حرية الضمير في الاخوة، هي الحريات

المشروعة . الاجتماعية والتقدم الاجتماعي والقيم التي تكون شرط الكرامة الانسانية، عن طريق الروحوالقلب. ولا يجب أن يستعيد لبنانا بما يفعل غيره ، بل أن ينهض بتقويم عاداته السياسيةوالاجتماعية ، وبتعليم احترام الانسان المتزايد للانسان، ولرأي المواطن من المواطن.

وختم الاستاذ ميشال شيحا بقوله : " من واجبنا نحو أنفسنا ونحو الانسانية أن نبذل كل جهدنا لإظهار القيم الروحية والانسانية في المقام الاول. إن نياتنا شريفة ورسالتنا واضحة. فدور لبنان هو أن يفتش على القيم، ويبرزها، ويعيش فيها. وسواءأتناول الأمر العادات أم الثقافة أم الألسنة أم العلوم أم الذكاء أم المصالح، فمن واجبنا أن نرجع الى مستوى مصير كبير. وللوصول اليه، سنوفق بين مبادئنا وأعمالنا، وسنضع النظام في بيتنا. إن مستقبلنا قائم على معرفة القيم وتنظيمها.